المقاصد العلمية والعملية في سورة المزمل

محمد بن أحمد رفيق

شبكة الألوكة
www.alukah.net

المقاصد العلمية والعملية في سورة المُزَّمِّل

تأليف

محمد بن أحمد رفيق

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

التعريف بالسورة وما جاء فيها من أخبار صحيحة

سورة المزمل، هي السورة الثالثة والسبعون بحسب ترتيب المصحف، وهي من قسم المفصل، وعدة آيها في عد أهل المدينة ثمان عشرة آية، وفي عد أهل البصرة تسع عشرة وفي عد من عداهم عشرون.

عن سعد بن هشام، قال: انطلقنا إلى عائشة، فاستأذنا عليها، فدخلنا قلت: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: «ألست تقرأ هذه السورة يا أيها المزمل؟» قلت: بلى، قالت: «فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا، ثم أنزل الله عز وجل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة».[1]

وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: «وهي مكية كلها في قول المهدوي وجماعة، وقال الجمهور: هي مكية إلا قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ [المزمل: 20] إلى آخر السورة، فإن ذلك نزل بالمدينة». المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (5/ 386).

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «ليس لهذه السورة إلا اسم «سورة المزمل» عُرفت بالإضافة لهذا اللفظ الواقع في أولها، فيجوز أن يراد به حكاية اللفظ، ويجوز أن يراد به النبيء صلى الله عليه وسلم موصوفا بالحال الذي نودي به في قوله تعالى: يا أيها المزمل [المزمل: 1]».[2]

---

[1] السنن الكبرى للنسائي (10/ 315)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (2/ 548)

[2] التحرير والتنوير (29/ 252).

شرح بعض الكلمات الواردة في السورة

قال الإمام البخاري في صحيحه: قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾: «أَخْلِصْ» وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿أَنْكَالًا﴾: «قُيُودًا»، ﴿مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾: «مُثْقَلَةٌ بِهِ» وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَثِيبًا مَهِيلًا﴾: «الرَّمْلُ السَّائِلُ وَبِيلًا شَدِيدًا».[1]

مناسبتها لما قبلها حسب ترتيب النزول

وجه المناسبة بين سورة المزمل وسورة القلم، أن كلتا السورتين استهلتا بخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ففي «القلم» نقرأ: ﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ الآية. وفي «المزمل»: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾ [المزمل: 1 – 4]. ولما أمره ربه في تلك بالصبر: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ [القلم: 48] أعاد الوصية هنا فقال: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾ [المزمل: 10]. ولما بيّن سبحانه وتعالى في تلك أن سبب إعراض من أعرض، هو المال والغنى: ﴿**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ**﴾ [القلم: 12 – 14]، أعاد هنا السبب نفسه في إعراض من سبق، فقال: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾ [المزمل: 11]. وأيضا وجه التشابه في الأسلوب واضح، قال في تلك: ﴿**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [القلم: 44]. وقال في هذه: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾ [المزمل: 11]. ولما ختم تلك بقوله

---

[1] صحيح البخاري (6/ 161)

تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52] قال هنا: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: 19].

فأوجُه الربط والمناسبة جلية لا يحتاج إلى تكلّف، وفي هذا إشارة إلى أحوال النبي صلى الله عليه وسلم مع ما كان يلقاه من إعراض كبراء قريش، ذوي الأموال والجاه والشأن. وما كان يتعرّض إليه من سخرية واستهزاء. والله أعلم.

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «فإذا كانت سورة المزمل قد أنزلت قبل سورة المدثر كان ذلك دالا على أن الله تعالى بعد أن ابتدأ رسوله بالوحي بصدر سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: 1] ثم أنزل عليه سورة القلم لدحض مقالة المشركين فيه التي دبرها الوليد بن المغيرة أن يقولوا: إنه مجنون.

أنزل عليه التلطف به على تزمله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين، فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل، ثم فتر الوحي فلما رأى الملَك الذي أرسل إليه بحراء تدثّر من شدة وقع تلك الرؤية، فأنزل عليه يا أيها المدثر.[1]

محور السورة وبعض مقاصدها وأغراضها

هذه السورة صوّرت لنا حال النبي صلى الله عليه وسلم في أول مرحلة من مراحل الوحي، فما أن نزلت عليه آيات من سورة العلق، والقلم، حتى أُمر في هذه بصلاة الليل ليتستعين بها على ثقل أعباء الدعوة وأوامر ربه، فأرشده ربه إلى طريق السير إليه، وبيّن له الطريق إلى تقواه في حده الأدنى وحده الأعلى. فأما حدُّه الأدنى فتأخر نزوله بسنوات، وأُمر فيها ومن معه بالصلاة المفروضة، والزكاة، والاستغفار، وقيام ما تيسر من الليل. وأما حدُّه الأعلى، وهو أول ما نزل عليه في

[1] التحرير والتنوير (29/ 257)

أوائل السورة، ففيه القيام من الليل، وترتيل القرآن، وذكر الله، وانقطاع إليه عزّ وجل، والصبر على أقوال الكافرين، وهجرهم، وانتظار فعل الله فيهم حال الاستضعاف والغربة.

وتكاد السورة كلها تكون موجهة لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم دون غيره، لأن المرحلة مرحلة دعوة جاء بها رسول إلى العالمين، فكان من الضروري توجيه الخطاب له. ولمن أراد أن يتشرف ويتكلف بمقام الاقتداء به في الدعوة. كما سنرى في المقاصد العملية للسورة.

«والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة. تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم. وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل، والصلاة، وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل. والاتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذبين، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة!..

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير. والتوجيه للطاعات والقربات، والتلويح برحمة الله ومغفرته: «إن الله غفور رحيم» ..

وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل، الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية – البشرية الضالة، ليردها إلى ربها، ويصبر على أذاها، ويجاهد في ضمائرها وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري، ولذاذة تلهي، وراحة ينعم بها الخليون. ونوم يلتذه الفارغون! » [1]

[1] في ظلال القرآن (6/3741، 3744)

الفوائد والمقاصد العلمية المستنبطة من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9).

إن المتأمل والمتدبر في مطلع السورة، إذا نظر إلى ما سبقها نزولا فسيلاحظ المناسبة بينهما، ويستشعر الحالة النفسية للنبي صلى الله عليه وسلم، والحالة الزمنية والمكانية معا، وبذلك يستطيع تنزيل الآيات على الواقع، ويعي أبعادها ومقاصدها.

فبالنظر إلى آخر آيات من سورة القلم ـ التي سبقت المزمل ـ نجد الآيات موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)**﴾. وورد أثر ضعيف الإسناد، نستأنس به لما له علاقة بالمناسبة بين آخر آية في «القلم» ومطلع «المزمل». فعن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فتزمل

في ثيابه وتدثر فيها. فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: «يا أيها المزمل»، «يا أيها المدثر».[1]

وهذه الآيات الأولى ـ من سورة المزمل ـ كلها موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم، ليتسلَّح بها في مواجهة المعاندين والمستهزئين به، فأمره ربه أن يقوم الليل، نصفَه أو ينقص منه قليلا أو يزد عليه، أن ويرتل القرآن ترتيلا والناس نيام، فهذا القرآن ـ وإن كان ميسّرا في قراءته ـ فالعمل به ثقيل، ووقت نزوله كذلك ثقيل، لذا يحتاج إلى عزم وجدّ وقوة، فالقيام به ليلا في الصلاة، أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ وأما حوائج الدنيا والتقلب فيها، الفراغ والنوم، فشأنه النهار: ﴿**إن لك في النهار سبحا طويلا**﴾. وأمره ربه أن يخلص له العبادة في كل وقت وحين، وأن يكثر من ذكره، وينقطع إليه، ويتفرغ لعبادته إذا فرغ من أشغاله، وما يحتاج إليه من أمور دنياه، فقال له: ﴿**واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا**﴾. ربك الذي هو ﴿**رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا**﴾ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿**فاتخذه وكيلا**﴾.

لطيفة بيانية

قوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل﴾. إن قيل: لم نودي النبي صلى الله عليه وسلم بالحالة التي كان عليها ـ وهي التزمل ـ فهلا قال: يا محمد، أو يا أيها النبي؟

[1] مسند البزار برقم (2276) «كشف الأستار»، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3408) من طريق محمد بن موسى القطان به مثله، وقال الهيثمي في المجمع (130/7) : «وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب».

قال السهيلي: في ندائه بالمزمل فائدتان، إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: «قم أبا تراب».[1]

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة.[2]

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾..

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ عنك، أنك «مجنون» .. «ساحر» ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ هجرا لا عتابه معه. قال الشيخ السعدي رحمه الله: «فلما أمره الله بالصلاة خصوصا، وبالذكر عموما، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرا جميلا وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة

---

[1] الحديث في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة فلم يجد عليا في البيت فقال أين ابن عمك قالت كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل عندي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان انظر أين هو فجاء فقال يا رسول الله هو في المسجد راقد فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه عنه ويقول قم أبا تراب قم أبا تراب «. اللفظ للبخاري.

[2] التسهيل (3 / 242)

الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن».[1]

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾

أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿**ومهلهم قليلا**﴾ أي: رويدا. وهذا هو الغالب على أهل الترف والغنى، كما مرّ معنا في «القلم»: ﴿**أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)**﴾ [القلم: 14، 15]. وأيضا في «العلق»: ﴿**كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾.

فإن سألك سائل: متى يكون هذا العذاب؟ فقل لهم: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا**﴾ رملا مجتمعا ﴿**مهيلا**﴾ سائلا بعد اجتماعه.

قال تعالى:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19)﴾ [المزمل: 15 – 19]

[1] تيسير الكريم الرحمن (ص: 893)

يقول سبحانه مخاطبا لكفار قريش، والمراد سائر الناس: ﴿**إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم**﴾ أي: بأعمالكم، ﴿**كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا**﴾ شديدا؟ أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. فكيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟ قوله: ﴿**يوما يجعل الولدان شيبا**﴾ أي: من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. فيقول من كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة.

﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (20)**﴾.

والمعنى: عَلم الله جل وعلا أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله وهذه الآية . بل السورة كلها . مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من

أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة. ولهذا قال: ﴿**فاقرءوا ما تيسر منه**﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه.

بعض ما جاء في قيام الليل

لقد وردت عدة أحاديث في فضل قيام الليل وما له من أجر وثواب، وسنكتفي بذكر بعضها اختصارا.

فقد جاء في صحيح الإمام مسلم من طريق حفص وأبي معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خاف أن لا يقوم آخر الليل فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل فإن صلاة آخر بالليل مشهودة وذلك أفضل». وقال أبو معاوية: محضورة.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «عليكم بقيام الليل، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدعه، فإن مرض قرأ وهو قاعد «، وقد عرفت أن أحدكم يقول بحسبي أن أقيم ما كتب لي، وأنى له ذلك».[1]

وعن أبي رجاء قلت: للحسن رحمه الله: ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة؟ قال: «لعمر الله ذاك إنما يتوسد القرآن. قلت قال الله تعالى: ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ قال: نعم ولو خمسين آية «.

وقال معمر: قلت لابن طاوس: «هل كان أبوك ربما نام الليل حتى يصبح؟ قال: ربما أتى عليه ذاك».

---

[1] مسند أحمد (41/ 420)

وقال رجل لابن عمر: إني أحب التهجد والصلاة لله، ولا أقدر عليها مع الضعف. فقال: «ارقد يا ابن أخي ما استطعت، واتق الله ما استطعت».[1]

وعن سويد بن غفلة، أنه عاد زر بن حبيش في مرضه، فقال: قال أبو ذر، أو أبو الدرداء – شك شعبة – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد يحدث نفسه بقيام ساعة من الليل، فينام عنها، إلا كان نومه صدقة تصدق الله بها عليه، وكتب له أجر ما نوى».[2]

وعن عطاء، ﴿**كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**﴾ [الذاريات: 17] قال: «ذلك إذ أمروا بقيام الليل» وكان أبو ذر يحتجز احتجازه، ويأخذ العصا فيعتمد عليها، فكانوا كذلك حتى أنزلت الرخصة: ﴿**فاقرءوا ما تيسر منه**﴾».[3]

وعن عائشة، أخبرته أنها كانت إذا عركت، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بنت أبي بكر – ثم ذكر قتيبة كلمة معناها – اتزري على وسطك»، وكان يباشرها من الليل ما شاء الله حتى يقوم لصلاته، وقلَّ ما كان ينام من الليل لما قال الله عز وجل له: ﴿**قم الليل إلا قليلا**﴾ [المزمل: 2].[4]

بعض المسائل الفقهية

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ [المزمل:20]: وعبَّر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة الإسراء: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ**﴾ [الإسراء:110] أي: بقراءتك.

---

[1] مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: 25)

[2] صحيح ابن حبان – محققا (6/ 323)

[3] مصنف ابن أبي شيبة (2/ 47)

[4] السنن الكبرى للنسائي (10/ 316)

وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى بهذه الآية على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن».

وقد أجابهم الجمهور بحديث: عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو في الصحيحين، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

قوله تبارك وتعالى: ﴿**وآخرون يقاتلون في سبيل الله**﴾ قال الحافظ ابن كثير: «وهذه الآية -بل السورة كلها-مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة».[1]

قوله:﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة. وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة. والله أعلم.[2]

المقاصد العملية في السورة وتنزيلها على أرض الواقع

قوله تعالى:﴿**يا أيها المزمل قم الليل** ..﴾ الآيات. الأمر بالقيام هنا للوجوب. وهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، بدليل آية الاسراء: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (79)**﴾. وحمله الأحناف على الأمة بكاملها. والصحيح أنه واجب في حق النبي فقط، ومستحب ومندوب لأمته. كما قال الحافظ: «واختلف في معنى قوله: ﴿**نافلة**

[1] تفسير ابن كثير: (8/ 258)

[2] المصدر نفسه: (8/ 259)

لك﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجبا في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي، رحمه الله، واختاره ابن جرير».[1]

قلت: وعلى هذا فينبغي لمن وطّن نفسه للدعوة إلى الله تعالى أن يكون له ورد من قيام الليل، ليستعين به على أعباء الدعوة، والصبرِ على ما يلقاه من المعاندين والمستهزئين. وأن لا يكون حاله ليلا كحال عوام الناس.

قوله تعالى: ﴿**ورتل القرآن ترتيلا**﴾: الأمر هنا للوجوب. وأحاديث ترتيل القرآن وتجويده وتحسين الصوت به كثيرة. وقد صنّف العلماء في هذا الباب مصنفات، وصار علما مستقلا بذاته، لما له من علاقة بكلام الله تعالى والنطق السليم.

وخُلاصة علم التجويد: أنه علم يُعرف منه مخرج كل حرف، وحقه من الصفات اللازمة كالجهر والاستعلاء، ومستحقه من الصفات العارضة كالتفخيم والإخفاء، ثم أقسام الوقف والابتداء، إلى غير ذلك.

وأما حكم العمل به: فالوجوب على كل مكلف يقرأ شيئا من القرآن.

وأما حكم تعليم هذا العلم: فعلى الوجوب الكفائي[2].

وأشهر مباحثه: مخارج الحروف وصفاتها وأحكامها.

---

[1] المصدر نفسه (5/ 103)

[2] الواجب ينقسم إلى قسمين، عيني وكفائي. أما الواجب العيني: فهو ما توجه فيه الطلب إلى كل مكلف، أي طلب الشارع فعله من كل واحد من المكلفين، فلا يكفي فيه قيام البعض دون البعض الآخر.

وأما الواجب الكفائي: هو ما طلب الشارع حصوله من جماعة المكلفين من غير نظر إلى فاعله، لأن مقصود الشارع حصول الفعل فقط، فإذا فعله البعض سقط الإثم عن الباقين، وإذا لم يفعل نهائيًّا أثم الجميع، لتعلق الطلب بالكل. (روضة الناظر وجنة المناظر (1/ 122) (1/ 123) بتصرف.

وأشهر كتبه قديما وحديثا: الخاقانية لموسى بن عبيد الله (ت 325هـ)، والرعاية لمكي بن أبي طالب (ت 437هـ). والتمهيد، وكذا الجزرية كلاهما لمحمد بن محمد بن الجزرى (ت 833هـ). ونهاية القول المفيد للعلامة محمد مكي نصر،(ت:1325 هـ). وهداية القارئ لعبد الفتاح عجمى المرصفى (ت 1409هـ).

وقد كثرت الأدلة والفتاوى ونصوص العلماء على وجوبه انطلاقا من هذه الآية. ويُروى أن عليا رضي الله عنه قال: «الترتيل هو تجويد الحروف، ومعرفة الابتداء والوقوف»[1].

وقال تعالى: (**قرآنا عربيا غير ذي عوج**) الزمر:28. فمن أخل بتصحيح قراءته له، فقد ارتكب محظورا. ولذا قال الإمام ابن الجزري رحمه الله:

والأخذ بالتجويد حتم لازم ... من لم يجود القرآن آثم

قوله تعالى: ﴿**وتبتل اليه تبتيلا**﴾: التبتل: الانقطاع. وهو تفعُّل من البتل وهو القطع. وسميت مريم عليها السلام البتول لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفا وفضلا. وقُطعت منهن... والتبتل يجمع أمرين اتصالا وانفصالا. لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، خوفا منه، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكرا فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله.

[1] ذكره الإمام السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (1/ 282) بغير سند.

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حبا وخوفا ورجاء، وإنابة وتوكلا. قاله ابن القيم في مدارجه.[1]

وهو قسمان: شرعي وبدعي.

أما الشرعي: فهو ركون القلب إلى رب الخلائق، دون التعلق بالمخلوقات. والخلوةُ الشرعية مثل الاعتكاف، ولزوم البيت عند الفتن مع المحافظة على صلاة الجماعة والجمعة، وعيادة المرضى وتشييع الجنائز، وصلة الرحم، وما لابد منه كطلب العلم والضرب في الأرض للسعي على الأهل والأولاد.

وأما البدعي: فكتبتّل الرهبان، ودعوى الزهد عند بعض المتصوفة البَطالين. وقد بوّب البخاري في صحيحه: باب ما يكره من التبتل والخصاء. ثم ساق حديثا بسنده عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال: «رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا».[2] والمراد بالتبتّل المنهي عنه هنا، هو الانقطاع عن الزواج.

فلابد للداعية من عزلة وخلوة شرعية ولو مرة في السنة، كأن يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، أو في أي وقت تيسّر له ذلك.

قوله تعالى: ﴿**واصبر**..﴾.. ﴿**واهجرهم**..﴾..: هذه الآيات تبين لنا أن في مثل هذه الظروف والأحوال، من قلّة وغربة، ينبغي للدعاة ـ والعصبة المؤمنة ـ أن يتحلّوا بالصبر على الأذى، والهجر الجميل، وليس بالمواجهة والاندفاع الحماسي.

---

[1] مدارج السالكين (2/ 30 ـ 32)

[2] صحيح البخاري (7/ 4)، صحيح مسلم (2/ 1020)

فهذه هي أوامر الله تعالى لنبيه ومن معه في بداية الدعوة لما كانوا مستضعفين بمكة، وهو الذي ينبغي اتباعه في حال الغربة، حذو القذة بالقذة.

وفي هذا يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام . وهم بمكة . مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار».[1]

وأما هَجر المعاندين والمستهزئين والرافضين للدعوة: فالحكمة في مواجهتهم هي: أن تكون تارة هجرا جميلا لا عتاب فيه، وتارة هجرا للمكان الذي لا تستطيع فيه الدعوة، وتارة الهجر بالقلب دون الجسد .. وكل ذلك حسب الزمان والمكان، وشدة الغربة، والقدرة، والاستطاعة، والضعف، والقوة.

قوله تعالى: ﴿**إنا أرسلنا إليكم**﴾ إلى قوله: ﴿...**أخذا وبيلا**﴾: اقتضت سنة الله تعالى أن يمهل المعاندين والجبابرة حتى يأخذهم على غرة. كما فعل بفرعون وملإه. فعلى الدعاة أن يُذكّروا بما وقع للأمم السابقة، خاصة قصة موسى عليه السلام مع فرعون. فإنها قصة مشهورة ومذكورة عند أهل الكتاب، وفي

[1] تفسير ابن كثير ت سلامة (2/ 359)

القرآن. وازداد وضوحها وانتشارها في عصرنا، حيث توصل الباحثون إلى تصوير وجه فرعون بعد العثور عليه محنطا في أهرام مصر.

قوله تعالى: ﴿**إنها هذه تذكرة..**﴾: الأصل في دعوة الناس تذكيرهم بما حل بالأمم السابقة، وبالوعظ والإرشاد والوعد والوعيد، فمن آمن واهتدى فالحمد لله، ومن أعرض ونآى فقد قامت عليه الحجة والبلاغ.

قوله تعالى: ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى..**﴾ الآيات. نلاحظ أن السورة افتتحت وختمت بقيام الليل لما فيه من أسرار في تحمُّل الدعوة، وإخلاص العمل، ما لا يوجد في صلاة النهار، ولا في عبادة أخرى. فقيام الليل مدرسة الإخلاص والتضرع والتدبر والخضوع والحب ومواطأة القلب لما يتلوه ويرتله اللسان ... فمن كان قيام الليل بدايته، لا شك أشرقت وحسُنت نهايته. ومن لم يتلذذ بمناجاة ربه والأنس به في جوف الليل لم يذق حلاوة الإيمان.

قوله تعالى: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى..**﴾: ذكر سبحانه في هذه الآيات علل ثلاثة، يمكن أن يترك فيها المؤمن قيام الليل، وهي: علة المرض، وعلة السفر للتجارة والعمل، وعلة الجهاد. فمن لم يكن مريضا، ولا مسافرا لتجارة، ولا مجاهدا، فليغتنم قيام ما تيسر له، ولا يفوّت عنه هذا الأجر، ولو بعشر آيات في ركعتين، كما ورد في الحديث: «من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بألف آية كتب من المقنطرين»[1]. وفقنا الله وإياكم لقيام الليل.

[1] سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 241)

قوله تعالى: ﴿**وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله**﴾ فيه: فضيلة التجارة لسوقها في الآية مقرونة بالجهاد. فقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، عن عمر بن الخطاب قال: ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتين رحلي ألتمس من فضل الله ثم تلا هذه الآية: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾.[1]

قوله تعالى: ﴿**واستغفروا الله...**﴾: ختم سبحانه الحديث عن قيام الليل بالاستغفار، لثلاثة أمور:

الأمر الأول: لأن السَّحر وقته. كما في قوله تعالى: ﴿**وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: 18]. وقوله: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران: 17].

وقد قيل: إن يعقوب، عليه السلام، لما قال لبنيه: ﴿**سوف أستغفر لكم ربي**﴾ [يوسف:98] أنه أخرهم إلى وقت السحر.[2]

الأمر الثاني: لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ » الحديث.

---

[1] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (8/ 323)

[2] تفسير ابن كثير ت سلامة (2/ 23)

وفي الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: مِن كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر.

وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبَلَ على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة.

الأمر الثالث: أن سرّ الاستغفار بعد قيام الليل كيلا يغتر المصلي بصلاته، وليعلم أنه مهما أطاع ربه فطاعته ناقصة. ولذلك ختمت الطاعات بالاستغفار. وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: «وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين – ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ [البقرة: 198 – 199] وقال تعالى ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾ [آل عمران: 17] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل،

وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم «كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا، ثم قال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح – ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا – فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾ [النصر: 1 – 3] .

ومن هاهنا فهم عمر، وابن عباس – رضي الله عنهم – أن هذا أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضا أن يقول بعد فراغه « «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين».

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهل أصحاب الدعاوي وشطحاتهم».[1] والله أعلم.

فعلينا أن نحرص على الاستغفار بعد الطاعات، كاستغفارنا بعد المعصية، وبعد كل مجلس، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارة له»[2].

---

[1] مدارج السالكين (1/ 192 . 193)

[2] سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 163)

وفي هذا القدر كفاية، وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى من المقاصد العلمية والعملية في سورة المزمل

هذا الكتاب منشور في